٩٩/٨/١٧

الفكر العربي

مجلة الإنماء العربي للعلوم الانسانية

تصدر عن معهد الإنماء العربي في بيروت

العدد الحادي والثلاثون كانون الثاني (يناير) ـ آذار (مارس) ١٩٨٣ السنة الخامسة

مستشارو التحرير

د. علي بن الأشهر — د. إحسان عباس — د. شكري فيصل

الشيخ عبدالله العلايلي — د. عمر التومي الشيباني — د. عبدالسلام المسدي

د. مصطفى التير — د. معن زيادة — د. إبراهيم رفيدة

رئيس التحرير رضوان السيد

المدير المسؤول عوض شعبان

العنوان

معهد الإنماء العربي
بيروت ـ لبنان

ص.ب المجلة : ١٤/٥٥٦٤ ص.ب المعهد : ١٤/٥٣٠٠

الهيئة القومية للبحث العلمي
طرابلس ص.ب ٤٠٨

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٨٢٤١١
التاريخ / ٢٠١٤/٢/١٥

الثمن : ٢٠ ل.ل. أو ما يعادلها

الدّرَاسَاتُ العَرَبيّة بجَامِعَة توبنغن (★)

نشر غرنوت رُوتر

مَرَاجَعَة حسَين جَحَازيّ

يهدف الكتاب إلى اعطاء فكرة عامة عن اتجاهات البحث العلمي، في مجال التعرف على التراث الاسلامي، والعربي في منطقتنا. والكتاب يتضمن عدداً من المقالات أعدها باحثون مستشرقون، بمناسبة الأسبوع الثقافي الألماني ـ العربي الذي نظم في توبنغن في أيلول/سبتمبر عام (١٩٧٤). إن كثيراً من الباحثين العرب، ـ إن لم نقل جميعهم ـ ناهيك بالمهمتين من القراء، ينظرون إلى ابحاث المستشرقين نظرة يغلب فيها الشك والريبة، وذلك نتيجة طبيعية لصدام تاريخي طويل ومرير، بدأ مع الحروب الصليبية التي أعلنها الغرب الاستعماري ضد المنطقة؛ هذه الحروب التي استمرت في العصر الحديث بوسائل مختلفة وشتى. ورغم الريبة التي لها ما يسوغها، فإن بحوث الاستشراق تبقى، حتى إشعار آخر، الرافد الأهم للتعرف على تراث الشرق ومعارفه، نتيجة لاستئثار الغرب بثروتنا المعرفية لقرون خلت، فلا يقتصر جشع الاستعمار على الثروات المادية، بل يتعدّاها ليطال الإرث المعرفي والثقافي للبلد التابع. خلاصة القول، إننا لم نبلغ المرحلة المرجوة، تلك التي تضع بين أيدينا بحوثاً موضوعية لا تشوبها شائبة، نتناولها بيسر واطمئنان، يتم انجازها على يد باحثين متمرسين، ومحققين أمينين، نذروا حياتهم في سبيل المعرفة والتنوير، وإزالة عصر الظلام الذي طال أمده.

أ ـ الدراسات العربية والاسلامية في جامعة توبنغن

(جرنوت روتر)

شكّلت الدراسات اللاّهوتية، أساساً للدراسات الشرقية التي قام بها المستشرقون. كما شكلت اللغة العبرية جوهر هذه الدراسات، ولم يبدأ الاهتمام بالدراسات الاسلامية إلاّ بعد عصر التنوير، ولم تتوضح معالم صورة جديدة للشرق إلاّ ابتداءً من القرن الثامن عشر، واكتسبت دراسات الفكر العربي، أهمية أدّت بها إلى الانفصال عن الدين، وكان من بين أوائل المهتمين بذلك: شولتز، رايسكي، سيلفستر دي ساسي.

حظيت جامعة توبنغن، بمستشرق يدعى هاينريش ايڤالد (١٨٠٣ ـ ١٨٧٢)، كرّس جهداً خاصاً للدراسات العربية، وأسهم في بناء جيل من الطلبة أكمل الطريق بعده، نذكر منهم ثلاثة من أبرز علماء ألمانيا فيما عنى الدراسات الاسلامية، وهم: **نولدكه، فلهاوزن، وسوتسين** (١٨٤٤ ـ ١٨٩٩)، والأخير زار المنطقة مرتين، وشملت الزيارة مصر وفلسطين وسورية والعراق،

(★) صدر الكتاب عن دار صادر للنشر، وأسهم في اعداده أساتذة الدراسات الشرقية، والمهتمون بتراث الشرق الأدنى والعالم العربي بالمعهد الشرقي بجامعة توبنغن ـ ألمانيا الغربية، نقل الكتاب إلى العربية الدكتور كمال رضوان؛ وأسهم في تحريره د. رضوان السيد (١٩٧٤).

وكان أهم مؤلف له يختص بالعربية «ديوان أواسط الجزيرة» الذي نشره تلميذه «هانز شتومي» بعد وفاته. ثم وضع كتاب «قواعد اللغة العربية» الذي نقحه بعده بروكلمان، ويعتبر إلى الآن، من أهم مراجع تدريس العربية في المانيا. عادت اللغة العبرية لتحتل المقام الأول في الجامعة، مع اطلالة عام (١٨٩٠)، ولسنوات ثلاث، وكان خلالها عالِم اللاهوت **ابرهارت نيستلي**، رئيساً لقسم الدراسات الشرقية في توبنغن، إلاَ أن «**زايبولد**» وهو تلميذ «سوتسين» أعاد للعربية سيرتها الأولى من خلال عمله في تأليف وتحقيق عدد من الكتب، أهمها: «الانصاف في مسائل الخلاف» للأنباري؛ و «المرصع» لابن الاثير. ثم خلفه في منصبه عام (١٩٢١) المستشرق **انيوليتان**، الذي بقي في القسم زهاء ثلاثين عاماً، والذي ما تزال آثاره ذات فعالية بالغة في شتى المجالات، ذلك انه جمع في آن، بين علم الساميّات وتاريخ الحضارة الاسلامية، درساً، وبحثاً، ومن ضمن أعماله التي جاوزت الخمسمائة، نذكر ترجمته «لألف ليلة وليلة»، كنموذج للأدب الشعبي العربي، وقد جمع مادته من خلال أسفاره الكثيرة للشرق.

خلفه في القسم، تلميذه **رودي پارت**، الذي ركَّز أبحاثه العلمية منذ البداية في مجالين اثنين هما: الأدب الشعبي، والقرآن الكريم؛ وتكلَّلت جهوده في هذا المجال بترجمة القرآن إلى الألمانية، إلى دراسة تحليلية للنص، ويعتبر عمله هذا مرجعاً أساسياً للباحثين الألمان في هذا المضمار. وقد عمل **يوسف ڤان** الذي خلفه في منصبه عام (١٩٦٨) على توسيع مجالات الاهتمام بمثل هذه الدراسات، ويضم القسم حالياً، أساتذة تخصصوا في الفقه والفلسفة الاسلامية، والأدب العربي القديم، وتاريخ العلوم الطبيعية، ولغات وحضارات الشرق المسيحي، وفجر الاسلام.

في نهاية مقالته، يعتبر «جرنوت روتر»، أن الأحداث الراهنة في الغرب، تكشف عن مسيس الحاجة إلى جهود أكثر تركيزاً على «دول العالم الثالث» بصفتها «أقرب المناطق الحضارية غير الأوروبية إلينا».

ب ـ أطلس توبنغن عن الشرق الأدنى

يتحدث الكاتب عن ضرورة إنجاز أطلس تاريخي ـ جغرافي، يشمل منطقة الشرق الأدنى كلها، وينطلق في فكرته تلك، من خلال «تاريخ فلسطين» الذي وضعه جوتي عام (١٩١١) تحت عنوان «أطلس الانجيل» والذي يعتبر ركيزة هامة لمادة الآثار المسيحية، لاحتوائه على عدد من الوثائق. إلاَ أن هذه الفكرة، تفوق إمكانات الجامعة كما يقول، لذا تأسّست عام (١٩٦٩) هيئة متخصصة تعمل في إطار الجامعة، تموّلها الهيئة الألمانية للبحث العلمي، التي تبنّت فكرة «أطلس الشرق الأدنى». وخلال الفترة الأخيرة، أمكن التوصّل إلى وضع مسودة تعتبر بمثابة خطة شاملة لأطلس من ثلاثماية خريطة تاريخية وجغرافية، تشمل مصر، وشبه الجزيرة العربية، وسورية ولبنان وفلسطين، وتركيا والعراق وإيران وأفغانستان.

ولا تقتصر الخرائط الجغرافية على العرض الجغرافي الطبيعي، بل تتعداه إلى المناطق السكنية، والاقتصاد، والمواصلات، والتجارة، ونمو المدن، والسياحة، والريف، والخطوط الجوية، والسياسات البترولية، والثروات الزراعية والحيوانية... وفي سبيل ذلك يقوم عدد من العلماء بزيارات دورية للمنطقة، ذات طابع علمي. أما الخرائط التاريخية، فهي تستعرض بدقة تاريخ الشرق منذ العصر الحجري القديم وحتى الآن. وبالنسبة لدراسة حضارة ما بين النهرين، اعتبرت الهيئة العراق، مركزاً أساسياً للبحث، كما وضعت برنامجاً مفصّلاً لدراسة الفترة الواقعة ما بين عصر الاسكندر الكبير وظهور الاسلام. كما خصّص جزء مهم للدراسات الإسلامية لما له من أثر فعلي في إحداث تغييرات جذرية في البنى الاجتماعية الشرقية. ولا يسع المرء إلاَ أن يحدث نفسه عن الغاية الحقيقية لعمل هذه الهيئة؛ وتلك الخرائط الذي يسميها المقال بالجغرافيّة والتاريخيّة،

المادية الذروة مع ماركس، الذي أسس الاجتماع على الاقتصاد، والاقتصاد على تقنيات الانتاج الصناعي، معتبراً أن « وحدة الوجود هي وحدة الوجود الاقتصادي »[٤].

وبما أن توحيد العالم اقتصادياً كان يجري على قاعدة النموذج الغربي، وكذلك توحيده سياسياً، فإن ماركس لم يترك للشرق على المستوى الثقافي سوى طريق واحد للخلاص، هو « التأورب »، في حين أن لينين، الذي كان أوروبياً من حيث العقلية والتجربة، التزم نهج معلمه بأمانة. فربط نفسه بالثورة الأوروبية، وأدار ظهره للشرق على رغم انتمائه إلى عالم ما بين أوروبا وآسيا وانفتاحه على مشاكل آسيا[٥].

جوهر « التأورب »

ما من تعارض في فكر ماركس بين النزعة الضيّقة التي تمحور العالم حول أوروبا والرؤية الاستراتيجية « الأممية ». ففي مقالاته الشهيرة عن نتائج السيطرة البريطانية على الهند، طوّر ماركس مفهوماً عن الحضارة الهندية، والحضارة الآسيوية عموماً، يراهما دون الحضارة الأوروبية. لقد تراءى له، في الهند وآسيا، مجتمعٌ لا تلعب فيه المبادرة الفردية أي دور، مما جعله يستنتج أن هذا المجتمع يخنق كل النشاط الاقتصادي والسياسي في ظل « الاستبداد الشرقي »[٦].

وماركس الذي اعتبر، في رسالة إلى انغلز بتاريخ (٢ حزيران / يونيو ١٨٥٣)، غياب الملكية الخاصة للأرض « المفتاح الحقيقي للسماء الشرقية » وأحد ركائز « الاستبداد الشرقي »، ذهب إلى أن السمتين الأساسيتين لنمط الانتاج الآسيوي، هما: اقتصاد يستند إلى عدد هائل من التجمّعات القروية الصغيرة المنعزلة عن بعضها والتي تمارس الزراعة والحرفة على نطاق محدود، ووجود دولة استبدادية في القمة تستحوذ على قسم من فائض منتوج التجمعات القروية، وتتحمّل أعباء الأشغال العامة بمجملها، خاصة الري، وهذا أمر لا بد منه لحسن سير عجلة الاقتصاد[٧].

وتنطوي مفاهيم ماركس هذه على أبعاد واضحة؛ فنمط الانتاج الآسيوي يقابل مرحلةً مبكرة جداً من تطور البشرية تلي مباشرةً الشيوعية البدائيةَ، والتأكيد على أن البلدان الآسيوية ما زالت في فجر الحضارة، إنما يعني أن هذه البلدان لن تخرج أبداً من حال الركود من دون تدخّل الغرب. ولا يترك ماركس مجالاً للتساؤل حول شرعية هذا التدخّل والأشكال التي قد يرتديها، سوى الإطار الذي تحدّده النظرية القائلة: بأن الحكم على أية حرب يجب أن يرتكز على خصائصها، فإذا كانت تساهم في « التقدّم » ينبغي تأييدها.

« إن انكلترا بإطلاقها ثورة اجتماعية في هندستان، لم تكن مدفوعة بالتأكيد إلاّ بالمصالح الأكثر دناءةً، وقد أنجزتها بوسائل غير معقولة. لكنّ المهم ليس هنا، بل في السؤال الحقيقي التالي: هل يمكن أن تحقق الإنسانية

رسالتها من دون انقلاب جوهري في الحالة الاجتماعية لآسيا؟ إذا كان الجواب سلبياً، فإن انكلترا تكون عندئذ الأداة غير الواعية للتاريخ بتحقيقها هذه الثورة أيّاً كانت جرائمها»[٨]. ولا شك في أن وعي ماركس لطبيعة الصراع الدائر هو الذي يجعله يحدّد مسبقاً آلياته ونتائجه، بحيث ينتفي تصوّر مخرج آخر غير الهيمنة الغربية: «على انكلترا أن تحقّق في الهند مهمة مزدوجة، تدميرية وإحيائية: القضاء على النظام الاجتماعي الآسيوي القديم وخلق الأسس المادية لنظام اجتماعي غربي في آسيا...»[٩].

رسالة تمدينية

وهكذا يضفي ماركس رسالة تمدينية على الاستعمار الأوروبي الحديث. فإذا كان الشرط الذي يؤهل الآسيويين للعب دور ما في العالم وتطوير حضارة ديناميكية هو «تأوربهم»، فإن جوهر «التأورب» يتمثّل في «التمدّن» الرأسمالي، أو «التقدم» على طريق التوحيد الاقتصادي وفقاً للنموذج الغربي. حتى روسيا القيصرية التي تلاحقها لعنة «الاستبداد الشرقي»[١٠] والتي ينظر إليها على أنها مصدر الخطر الداهم الذي يهدد أوروبا من الداخل (الأطراف الشرقية)، ومن الخارج (الأطراف الآسيوية)[١١]، فقد قدمت إليها فرصة العبور في «المطهر» عبر القيام بدور تمديني في الشرق.

ويدافع انغلز عن عمليات الغزو والاستيطان التي كانت تقوم بها روسيا في آسيا الوسطى، مؤكداً أن «روسيا... هي فعلاً تقدمية بالنسبة إلى الشرق. فمقابل سفالتها وقذارتها السلافيتين، تشكل السيطرة الروسية عاملاً تمدينياً في البحر الأسود، وبحر قزوين وآسيا الوسطى، وفي أوساط الباشكير والتتار... إلخ.»[١٢]. وحين يتنافس بَلَدان أوروبيان على منطقة في طور النمو، يفضّل ماركس وانغلز البلد الأكثر تقدماً. ونظراً إلى أن مفهوم «الأكثر تقدماً» كان ينطبق على انكلترا، فإن النفوذ البريطاني يجب أن يتقدم على النفوذ الروسي. ويقول انغلز في هذا الصدد: «من الواضح أن التفاعل الأساسي بين أوروبا وآسيا الوسطى، وهو الوسيلة الرئيسية لتمدين تلك المنطقة الواسعة، وليس التجارة الواسعة النطاق فحسب، يتوقف على حرية التجارة دون عائق عبر تلك البوابات إلى البحر الأسود»[١٣].

في معرض استخلاص «الشروط المادية لعالم جديد»، يقول ماركس إنه «عندما تكون ثورة اجتماعية كبيرة قد حُكمنت بإنجازات العصر البورجوازي ـ السوق الدولية والقوى المنتجة الحديثة، وأخضعتها للرقابة المشتركة للشعوب الأكثر تقدّماً، عندئذ فقط لن يعود التقدم الانساني شبيهاً بهذا الإله الوثني الرهيب الذي لم يكن يريد ارتشاف الكوثر إلاّ في جماجم الأعداء المقتولين»[١٤].

وتبدو موافقة ماركس وانغلز على الغزو الأميركي للمكسيك العام (١٨٤٧)، مرتبطةً بكون الولايات

المتحدة في نظرهما أكثر تقدماً من بريطانيا، من ناحية، واعتبارهما المكسيك بلد « كسالى »، إن لم تكن أرض « أدنى الرجال »[١٥]، ويحتاج إلى وصاية بلد متقدم ما، من ناحية ثانية. لذلك من الأفضل أن يكون هذا الوصي الولايات المتحدة وليس انكلترا. في أي حال، لقد توقّعا أن يقدم « اليانكي النشيطين » على تطوير كاليفورنيا بوتيرة أفضل وأسرع ممَّا فعل أو قد يفعل أهل المكسيك[١٦].

وعندما ضُربت المقاومة الاسلامية في الجزائر بقيادة الأمير عبد القادر، لم تكن ردود فعل انغلز مختلفة في مضمونها عن تعليقاته وماركس حول الحرب المكسيكية، وإن بدا تأييد الاحتلال الفرنسي أكثر صراحة، ولامست الأحكام المتعلقة « بالسكان الأصليين » حدود الازدراء العنصري:

« إن نضال البدو أمر لا رجاء منه، فعلى رغم أن الأسلوب الذي اتبعه في الحرب جنود متوحشون، من أمثال بوغو، يستحق اللوم، فإن إخضاع الجزائر عمل مهم وميمون من أجل تقدُّم المدنية. ولم يكن ممكناً قهر قرصنات دول البربر التي امتنعت الحكومة الانكليزية عن التدخل في شؤونها ما دامت لا تتحرش بسفنها، إلاَّ بإخضاع واحدة من هذه الدول. فقد أصبح هؤلاء مضطرين إلى إيجاد عمل آخر لشعوبهم غير القرصنة، ووسائل أخرى لملء خزائنهم غير الإتاوات التي تدفعها لهم الدول الأوروبية الصغرى. وإذا كان الأسى قد تملَّكنا بسبب الدمار الذي لحق بحرية البدو في الصحراء، فإنه يجب الاَّ ننسى ان هؤلاء البدو أنفسهم كانوا أمة من النهابين، الذين تقتصر وسائل عيشهم الرئيسية على الغزو المتبادل أو غزو القرويين المستقرين، من بعيد، تبدو كل هذه الأمم البربرية وكأنها شديدة الكبرياء والنبل والعظمة، لكنك إذا اقتربت منها تجدها محكومة بشهوة الربح، كالأمم الاكثر تمدناً، لكنها تستخدم وسائل أكثر بدائية وقساوة. في أي حال، إن البورجوازي بما يجلبه من مدنية وصناعة ونظام وتنوير نسبي، هو الأجدر بالتأييد من الإقطاعي صاحب الأرض أو النهاب الغازي على رغم ان الاثنين ينتميان إلى مجتمع بربري »[١٧].

« الخطاب الاستعماري »

إن النص الماركسي، كما رأينا، هو نص أوروبي، بمعنى أنه لا يحمل أي نظرة نقدية أساسية للظاهرة الاستعمارية[١٨]. ويستمد عصب تماسكه من نزعة الاستكبار الملازمة لـ « المركزية الأوروبية »، لذلك لم تنفع كل الجهود التي بذلها عدد من المؤرخين والمفكرين الماركسيين المحدثين، في محاولتهم تبرير وطمس « الخطاب الاستعماري » لماركس وانغلز، بواسطة تفسيرات « موضوعية »، تحذّر تارةً من حرفية النص التي لا تأخذ في الاعتبار السياق الحدثي والتاريخي، أو تفتش عن تعليل في تصوُّر المعلومات ومحدودية وسائل الاعلام في ذلك العصر، وتتحدث تارةً أخرى عن أولويات نظرية ركزت الاهتمام على تحليل الرأسمالية في إطارها الأوروبي معتبرة ما عداها حضارة زائلة... إلخ. فقد ألقت « المركزية الأوروبية » بظلالها الثقيلة على مسألة حق تقرير

المصير، التي لم تظهر في كتابات ماركس وانغلز إلاَّ في حالات استثنائية، تتعلَّق بأمم أوروبية صغيرة تتعرَّض للقهر من جانب أمم كبيرة.

وقد جاء في «الاعلان المؤيد لبولونيا»، الذي كُلّف ماركس بصياغته في لندن (في تشرين الأول / أكتوبر ١٨٦٣) إثر اقدام جنود القيصر على سحق التمرد البولوني (في ٢٢ كانون الثاني / يناير ١٨٦٣): «إن شعباً يضطهد شعوباً أخرى لا يمكن أن يكون حرّاً»[١٩]. وقد ظهرت هذه الفكرة التي ركّز عليها لينين لاحقاً، في رسائل عدة متبادلة بين ماركس وانغلز، ولو بصيغ مختلفة أحياناً؛ وطبَّقها ماركس في (١٨٧٠) على شعب إيرلندا، رداً على الفوضوي باكونين الذي أيَّد اضطهاد انكلترا لايرلندا: «إن الشعب الذي يضطهد شعباً آخر إنما يصنع قيوده بنفسه». إلاَّ أن مبدأ حق تقرير المصير ظل محصوراً، بالنسبة إلى الأبوين المؤسسين للماركسية، بالدائرة الأوروبية.

في المقابل، خص انغلز «البلدان المتخلفة» بدور التبعية، بحيث أن «انتصار بروليتاريا أوروبا الغربية» لا يكفي أن يكون هو «الشرط المسبق الضروري» لأيِّ تحول في «البلدان المتخلفة»، بل يتعيَّن على أوروبا أن تبيِّن لها «كيف العمل» للانتقال إلى الاشتراكية[٢٠].

الدوائر الثلاث

وفي (١٢ أيلول / سبتمبر ١٨٨٢)، قبل (٦) أشهر من وفاة ماركس، تناول انغلز مشكلة المستعمرات، من وجهة نظر حقّ الأمم في الاستقلال. إذ كتب في هذا الشأن رسالةً إلى كاوتسكي[٢١] وَرَدَ فيها الآتي:

«... في رأيي، أن المستعمرات بالمعنى المحدد، أي الأراضي المحتلة من السكان الأوروبيين مثل: كندا، والكاب، واوستراليا، ستصبح كلها مستقلة. على خلاف ذلك، وبصدد المناطق المستعبدة فحسب، والتي يسكنها الأصليون مثل: الهند، والجزائر والممتلكات الهولندية والبرتغالية والاسبانية، فإنه سيتعيَّن على البروليتاريا أن تتعهَّدها مؤقتاً وتقودها في أسرع وقت إلى الاستقلال... ومن شأن إعادة تنظيم أوروبا وأميركا الشمالية إضفاء قوة هائلة ومثال، والأمران مهمَّان إلى درجة أن البلدان شبه المتمدنة ستتبعنا تلقائياً: الضروراتُ الاقتصادية ستكون كافية لدفعها في هذا الاتجاه».

هنا، تتجلى النظرة التي تمحور العالم حول أوروبا، في توزيع استراتيجي للدوائر الحضارية، يبدأ من المركز الأوروبي، الأميركي، ويمرّ عبر دائرة الاستيطان الأوروبي، لينتهي بدائرة البلدان المستعبدة. ويتميز هذا التقسيم بأنه ثقافي في الأساس. فالنموذج هو أوروبا وامتدادها في أميركا الشمالية، والمناطق المطلوب وضعها تحت الوصاية هي «البلدان شبه المتمدنة»، وأن الاستقلال للمستوطنين الأوروبيين مسألة لا تناقش. أمَّا العلاقة التي

تتحكَّم بالتوازن بين الدوائر الثلاث، فهي مركزية تراتبية تتوقف على «إعادة تنظيم» المحور الغربي، كي يستوعب العامل الأميركي الطارىء في توازنه الداخلي الجديد.

اختراق الشرق

أمَّا لينين، فقد تناول مشاكل الثورة في البلدان غير الأوروبية، في إطار منظومة من المفاهيم الاستراتيجية، تقضي بتقنين القوى الوطنية في آسيا لوضعها في خدمة الثورة في أوروبا. وكان هذا التوجُّه يتطلَّب تعديلاً في أدوات الماركسية، لكي تصبح قابلة لاختراق الشرق، من دون أن يعني تغييراً أساسياً في «الخيار الأوروبي». لذلك، طغت نزعة النفعية على الموقف اللينيني من حركة البلدان المستعمرة والتابعة، خصوصاً أن لينين لم يكن يرى أية قيمة ذاتية للواقع الوطني، وهو القائل إن «شعار الثقافة الوطنية هو خديعة بورجوازية... أمَّا شعارنا نحن، فهو الثقافة الأممية للديمقراطية وللحركة العمالية الكونية»[٢٢]. وكونه عارض في شدّة منحى روزا لوكسمبورغ الرافض لحق تقرير المصير بحجة أنه رجعي، لا يعني أنه كان مؤيّداً لتقرير المصير كمبدأ مطلق، بل إن ذلك يعود فقط إلى اعتقاد لينين بأن دعم المطالب الوطنية يمكن في كثير من الحالات أن يعجل مسيرة الثورة الاجتماعية، أي يوفر إمكان توظيف دينامية «الأطراف» في عملية قلب الأوضاع على مستوى «المركز»[٢٣].

لقد التقط لينين الأهمية الاستراتيجية لطاقة التفجير الكامنة في الواقع المتحوِّل في المستعمرات، وتحديداً على «الأطراف» الآسيوية للقارة «الخامدة»، حيث أظهرت التطورات المتسارعة خلال العقد الأول من القرن العشرين الأبعاد الخطيرة للتصدُّع الذي أصاب الرقعة الامبراطورية من جرَّاء اختراق للمركز الأوروبي على خطوط التماس مع آسيا. فقد قدمت الهزيمة التي ألحقتها اليابان بروسيا في (١٩٠٥) الدليل الملموس على أن التفوُّق الغربي ليس من العناصر المكونة الدائمة للتاريخ، بعدما «ظل الشرق حتى ذلك اليوم لا حول له ولا قوة، حيال أوروبا المعتدية عليه؛ أو كان الكثير من الشرقيين حتى عهد تلك الحرب، يقولون أن لا مناص لبني أوطانهم من الخضوع لسيطرة الغرب المسلَّحة خضوعاً مشؤوماً»[٢٤]. ولا نبالغ، إذا قلنا إن الحرب الروسية - اليابانية في (١٩٠٥)، كان لها وقع الصدمة في النفوس على امتداد الشرقين؛ وقد أعطت زخماً جديداً لحركة التجديد الفكرية والسياسية، التي أسندت النهوض الاسلامي المتواصل في مستعمرات آسيا الوسطى خلال الفترة (١٩٠٧ - ١٩١٧).

إن مقالة لينين «**مواد ملتهبة في السياسة العالمية**» التي كتبت في العام (١٩٠٨)، تحت تأثير الأحداث التي تلت الهزيمة الروسية أمام اليابان، والثورة في روسيا سنة (١٩٠٥)[٢٥]، تشهد على محاولة مرتبكة لاستيعاب

ما. كاد أن يشكّل انقطاعاً في الرؤية الغربية. فالانتصار الياباني، الذي يمثل في الواقع أول هزيمة لقوة غربية كبرى أمام الشرق منذ قرون، لا يريده لينين تحدّياً للحضارة السائدة، كون « العامل الأوروبي الواعي قد حصل على رفاق آسيويين . . . » يقدمون في أحسن الأحوال مثالاً « لنضال مظفر »، من شأنه أن يشجّع « عشرات الملايين من البروليتاريين في آسيا ». ويعود لينين مرةً أخرى في العام (١٩١٢)، ليشدّد على انتسابه لعالم ماركس الفكري في مقال له عن **صن يات صن**[٢٦]، مؤكداً على الدور الحضاري للغرب: « . . . إن الشرق قد سلك نهائياً طريق الغرب، وإن المئات والمئات من الملايين الجديدة من الناس ستشترك من الآن وصاعداً في النضال من أجل المثل التي نادى بها الغرب ». ويصر لينين على مقاييسه الأوروبية، معتبراً رئيس جمهورية الصين حينذاك صن يات صن « ندّاً للرجال العظام والأنبياء الذين أنجبتهم فرنسا أواخر القرن الثامن عشر » مشيراً إلى أن أوروبا وأميركا هما المصدر الذي تقتبس منه « الأفكار التحررية ». وفي مقال آخر **« أوروبا المتأخرة وآسيا المتقدمة »**[٢٧]، يقيم لينين مقياساً للتقدم والرقي هو البروليتاريا الأوروبية، التي ينيط بها الدور الأساسي في تحرير شعوب آسيا.

« الامبريالية »

وجاءت الحرب العالمية الأولى لتسجّل مرحلة جديدة في مسار لينين الفكري، فقد واجه مؤسس البلشفية[٢٨] مشكلة انهيار الاشتراكية الديمقراطية في البلدان المتقدمة، بسبب الموقف من الحرب من جهة، وتنامي حركات المقاومة المناهضة للغرب في العالم المستعمر من جهة أخرى. وحاول لينين أن يجد نظاماً متماسكاً يستوعب هاتين الظاهرتين في آن، فكانت « الأممية الشيوعية » أو الأممية الثالثة[٢٩]، وهي أداة لاستراتيجية جديدة وضع قاعدتها النظرية، في كتابه **« الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية »** (نيسان / ابريل ١٩١٦)، الذي يندرج بناؤه في الايديولوجية الماركسية الكلاسيكية، لكنه يتميز بجدة استنتاجاته السياسية ـ الاستراتيجية. وقد استوحى لينين جوهر التصوُّر العقدي من مؤلَّفين سابقين هما، **« الامبريالية »** لهوبسون[٣٠] و**« رأس المال المالي »** لرودولف هيلفردينغ[٣١].

وادعى لينين، في محاولته تحديد سمات القرن العشرين، التمييز بين « الرأسمالية القديمة، حيث تسود المنافسة الحرة »، والتي تتميَّز « بتصدير السلع » من ناحية، و« الرأسمالية الحالية حيث تسود الاحتكارات »، والتي تتميز « بتصدير الرساميل » من ناحية ثانية؛ غير أن لينين تجاهل، بربطه تصدير الرساميل بوجود احتكارات رأسمالية، حقيقة أنه لا ألمانيا ولا الولايات المتحدة ـ وهما البلدان اللذان يتميزان بالتركز الصناعي الواسع ـ كانتا من مصدري الرساميل في الربع الأخير من القرن التاسع عشر؛ في حين كانت فرنسا شبه الزراعية تأتي في المرتبة

أوحى بمشيئته للإنسان عن طريق القرآن، إنه لمن العدل ومن الأهمية بالنسبة لنا أن نفهم الطريقة التي نشر بها القرآن وكيف شرحت تعليماتـه وفـق المنهـج الصـوري للتفكير.

نجد بالتأكيد أهمية غولدزيهر Goldziher وتأثيره، هناك أيضاً تجديد معاصر للبحث حول أصول الفكر الاسلامي، المعتزلة، وأهمية الفكر الحنبلي.

في الواقع، إن النموذج المثالي للبحث والاتصال لا ينحصر بماسينيون وبحدوده. إن المسالة المركزية كما يطرحها حوراني على نفسه هي تماماً كالآتي: إلى أية درجة يستطيع تاريخ المجتمعات وثقافتها، حيث يشكل الاسلام ايمان الأكثرية الموروث، إلى أية درجة تستطيع هذه المجتمعات أن تكون مفهومة من قبل الإسلام؟

يلعب في ذلك ثلاثة عوامل مركزة نوعاً ما ومنضدة: تاريخ الشرق الأوسط، أي تاريخ منطقة محددة منذ بداية القرن التاسع عشر ليس بحد ذاتها بل في مختلف علاقاتها مع الدول الأوروبية ـ ثم التاريخ الحديث الذي اصبح على الأخصّ عبارة عن دراسة تطورات الحداثة التقنية وتأثيراتها ـ والعامل الثالث هو التاريخ الاسلامي الذي هـو دراسـة التقـاليـد الاسلاميـة، الجسم الديني، المذهبي والتشريعي والطريقة التي يتبعها في مجابهة أفكار العالم الحديث حيث توجد القومية.

من خلال أبحاث غيرتز Geertz وكيدي Keddi، ومن خلال أمثلة مختلفة، يطور حوراني في عشرات الصفحات، وجهة نظر مثيرة للاهتمام ونموذجية حول المقاربة الانكلو ـ ساكسونية التي تحاول أن ترى الطريقة التي يستخدمها الاسلام كونه آلية داخلية وأزمة الحداثة.

لكننا نرى من كل هذا، وكأن الشرق الأوسط كان فقط مادة لدراسة أنتروبولوجية تاريخية وثقافية وليس مادة لدراسة أنتروبولوجية معاصرة. هناك دائماً سيادة وانقطاع جلي لا يتكلم عنهما أحد.

وتعالج مقالة جوزف ڤان إس Josef Van Ess، تطور فكرة التاريخ الثقافي في الإسلام في ألمانيا من ڤلهاوزن Wellhausen وحتى بيكر Becker.

هناك مقـاربـة مثيرة للاهتمام على طـريقـة وردنبرغ Waardenburg عن تطور بيكر Becker، العلاقة التي تربط حياته بمؤلفه. في الحقيقة من المهم أن نعرف أن بيكر كان ثرياً نوعاً ما، إذ كان يملك حصاناً وخادماً في الوقت الذي كان فيه أساتذه الدروس الخاصة في ألمانيا يموتون جوعاً أو كانوا يبحثون عن زوجة ثرية.

إننـا سنسترسـل في عـودة تـاريخيـة حتى ڤلهاوزن Wellhausen، من البروسي حتى الليبرالي كي نستنتج أنه ليس هناك بحث تاريخي قيم بدون دراسة فقهية. «إننا بحاجة إلى هردر Herder كحاجتنا إلى هيغل». هناك كره عميق وعفوي لـ «الحديقة الفرنسية».

ويبدو ذكاء إدوار سعيد وثقافته واضحين في مقـالتـه «الاسلام، النزعة الفلسفية والثقافـة الفـرنسيـة: رينـان وماسينيون».

من المحتمل أيضاً أن هذه المقارنة المتألقة تنقلت بطريقة سحرية بين ثقافات مختلفة وعصور وشخصيات ومؤلفات نادراً مـا وجـدت مـع بعضهـا. فلم يـذكـر ماسينيون رنان ولا مرة واحدة في جميع كتاباته (على الأقل، حسب معرفتي).

نبدأ مع ماتيو أرنولد Matthew Arnold (أديسون Addison وجوبيرت Joubert، وجيرمـي تيلور jermy Taylor وبـوسـوييـه Boussuet) كم أنهم يبـدون قليلي الوطنية بالنسبة لإنكليزي ثم نرى في ما بعد أن الغرابة هي الوسيلة الوحيدة لرفض إنكلترا بالنسبة لانكليزي، الغرابة الأدبية في الكلام عنها.

من خلال كتاب أرسليف Aarsleff (دراسة اللغة في انكلترا ١٧٨٠ ـ ١٨٦٠، مطبوعات جامعة برانسيت، ١٩٦٧) نـرى علاقـة إنكلترا بـالفقـه، وبـالشرق

المخلوق، والمبتغى، والمتصور والمصطنع: كيف يقع إدوار سعيد نفسه، المطلع بما فيه الكفاية والناضح، في الغرابة الأدبية « هاوي متفوق ومرهف » .

إن ما عولج هنا لا يتعلق سوى بنقاط هامشية وثانوية تماماً عن التاريخ الأوروبي ـ الميل الامبريالي لهذه الجزيرة المعادية لأوروبا بالمقارنة مع المركزة الفرنسية، ثم المحاولات الثلاث للتفسير .

وكأن ذلك آت من رغبة ملحة عنيفة عند إدوار سعيد الذي يريد أن يطبق على الانكليز الحقارة (التي يستحقونها) الغرابة، التيهان الذي عملوا به، لم يشتغلوا على الشرق بعقولهم. اللاهتمام والثانوية لطريقة في العمل هذا كي لا نقول الاحتقار .

متصدياً للموضوع نفسه، يعتمد سعيد على السبب الذي يجعل رنان وماسينيون غير صالحين سوى بفرنسا وليس في انكلترا ثم يبحث عن تبرير المقارنة المنهجية (التي ليس لها فائدة) مع انكلترا لأنه « يريد أن يبين الفرق الدراماتيكي في الأسلوب والانتاج الثقافي »

من جهة أخرى، مستنتجاً أزمة الاستشراق الأكيدة (لكن في الواقع نستطيع أن نضع أياً كان في أزمة وقبل كل شيء أنفسنا) يريد سعيد أن يقدر إمكانية الاستشراق في طرح سؤال على نفسه بشكل جدي كسخرية من علم محترم. إن الاستشراق الفرنسي، الأكثر وضوحاً والأكثر تماسكاً في علاقاته مع المشاكل الثقافية والتاريخ المعاصر، يشكل حقلاً مثالياً .

من رنان الفقيه، طالب سابق في مدرسة إكليركية، إلى ماسينيون المتأنق جداً والصوفي الذي ينتهي في أن يصبح مؤمناً، نجد سبيلين، مسيرتين لهما اتجاه معاكس على درب واحد .

نرى فقط أن المقارنة بين رنان وأرنولد مرفوضة بتاتاً، إذ ليس هناك مجال للمقارنة: ماذا، إذن، يخلق إدوار سعيد أزمة عنيفة من الفرانكفوتية المستعادة .

هناك بعض النقاط الصحيحة، أشير إليها فيما يتعلق بموضوع ماسينيون، وهنا تأمل فضولي حيث تكون المجالات جميعها ممكنة، ولكن هناك افتراضات كان يمكن أن تكون هي نفسها مسلية أكثر وممتعة أكثر لو استخرجت من خلفية النص .

إن مقال ـ علم الاجتماع في الاسلام ـ لأدمون بيرك Edmund Burk ، الذي يحلل الانتاج الفكري الفرنسي حول أفريقيا الشمالية، هو مقال موضح بشكل رائع .

ومقال إيرا لابيدوس « الاسلام والتجربة التاريخية للشعوب الإسلامية » يأخذ كثيراً عن غيرتز Geertz .

هناك مساهمة ستيكفيش Stekevych : إن لوجود الشعر أهمية بين ركام الأفكار الشرقية المتصلبة!

وينقل فضل الرحمن في مقالته (الدراسات الإسلامية ومستقبل الاسلام) بياناً نقدياً تطمينياً .